

على حائذ القدرة الكريمة

للشيخ محمد على الصابوني

بين يدى السورة :

هذه السورة الكريمة « سورة لقمان » من السور المكية ، التى تعالج موضوع العقيدة ، وتعنى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان وهى « الوجدانية ، النبوة ، والبعث والنشور » كما هو الحال في السور المكية .

ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم ، معجزة محمد الخالدة ، الباقية الدائمة على مدى الزمان ، وأقامت الحجج والبراهين على وحدانية ربّ العالمين ، وذكرت دلائل القدرة الباهرة ، والإبداع العجيب ، في هذا الكون الفسيح ، المحكم النظام المتناسق في التكوين في سمائه وأرضه ، وشمس وقمره ، ونهاره وليله ، وفي جباله وبحاره ، وأمواجه وأمطاره ، ونباته وأشجاره ، وفي سائر ما يشاهده المرء من دلائل القدرة والوجدانية ، مما يأخذ بالقلب ، ويبهز العقل ، ويواجه الإنسان مواجهةً جاهرة لا يملك معها إلا التسليم بقدرة الخالق العظيم ، كما لفتت أنظار المشركين إلى دلائل القدرة والوجدانية منبهةً في هذا الكون البديع ، وهزت كيانهم هزاً « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين »

وختمت السورة الكريمة بمفتاح الغيب وقبيل ذلك بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً . » الآية .

التسمية : سميت سورة لقمان لاشتمالها على قصة « لقمان الحكيم » التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته ، وذم الشرك ، والأمر بمكارم الأخلاق والنهي عن القبائح والمنكرات وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها ، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان .

« النصُّ القرآني الكريم »

قال الله تعالى :

« آلم (١) تلك آياتُ الكتاب الحكيم (٢) هُدَى ورحمةً للمحسنين (٣) الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون (٤) أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون (٥) ومن الناس من يشتري لهو الحديث ، ليُضِلَّ عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هُزُوًا ، أولئك لهم عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وإذا نُتِلَى عليه آياتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ، كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَآءٌ ، فبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جناتُ النعيم (٨) خالدين فيها وَعَدَّ الله حقًا ، وهو العزيز الحكيم (٩) خَتَمَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ، فَأُرَوِّنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . »



اللغة : (الحكيم) المحكم الذي لا خال فيه ولا تناقض (يوقنون) الإيقان التصديق الجازم (هو الحديث) الباطل الملهي عن الخير والعبادة (وقرأ) ثقلًا وصممًا يمنع من السماع (عَمَد) جمع عماد وهو الدعامة التي يركز عليها الشيء (رواسي) جبالًا ثوابت ، ورسست السفينة إذا ثبتت واستقرت (تميد) تتحرك وتضطرب (بَثَّ) نشر وفرَّق (زوجٍ كريم) صنفٍ حسن كثير المنفعة .

سبب النزول : أ — عن مقاتل قال : كان « النضر بن الحارث » تاجرًا يتاجر

إلى بلاد فارس ، فكان يشتري كتب الأعاجم ويُحدّث بها قريشاً ويقول لهم :
 إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار وأخبار
 الأكاسرة ، أليس حديثي هذا أحسن من حديث محمد ؟ فيستملحون حديثه ويتركون
 استماع القرآن فتزلت « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليُضِلَّ عن سبيل
 الله (١) » الآية .

ب - وروى أن « النضر » كان يشتري المغنيات ، فلا يظفر بأحدٍ يريد الإسلام
 إلا انطلق به إلى قينته « مغنيته » فيقول لها : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول : هذا
 خيرٌ مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه فأنزل الله « ومن
 الناس من يشتري لهو الحديث (٢) . . » الآية .

التفسير : (آلم) الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وللإشارة إلى أن هذا
 الكتاب المعجز الذي أفهم العلماء والأدباء ، والفصحاء والبلغاء منظوم من أمثال
 هذه الحروف الهجائية « ألف ، لام ، ميم » وهي في متناول أيدي الناطقين بالعربية ،
 وهم عاجزون أن يؤلفوا منها كتاباً مثل هذا الكتاب بعد التحدى والإفحام ، وهذا
 من أظهر الدلائل وأوضح البراهين على أنه تنزيل الحكيم العليم (تلك آيات الكتاب)
 أي هذه آيات الكتاب البديع الذي فاق كل كتاب في بيانه ، وتشريعه ، وأحكامه
 (الحكيم) أي ذى الحكمة الفائقة ، والعجائب الرائقة ، الناطق بالحكمة والبيان ،
 والإشارة بالبعيد عن القريب « تلك » للإيدان ببعده منزلته في الفضل والشرف
 (هدى ورحمةً للمحسنين) أي هداية ورحمة للمحسنين الذين أحسنوا العمل في
 الدنيا ، وإنما خُصّوا بالذكر لأنهم هم المنتفعون بما فيه ، ثم وضع تعالى صفاتهم
 فقال (الذين يقيمون الصلاة) أي يؤدونها على الوجه الأكمل بأركانها وخشوعها
 وآدابها (ويؤتون الزكاة) أي يدفعونها إلى مستحقيها طيبةً بها نفوسهم ابتغاء
 مرضاة الله (وهم بالآخرة هم يوقنون) أي يصدقون بالدار الآخرة ويعتقدون
 بها اعتقاداً جازماً لا يخالطه شك ولا ارتياب ، وكرّر الضمير « هم » للتأكيد وإفادة
 الحصر (أولئك على هدى من ربهم) أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة

على نور وبصيرة ، ومنهج واضح سديد ، من الله العزيز الحميد (وأولئك هم
المفلحون) أى هم الفائزون السعداء في الدنيا والآخرة قال أبو حيان : وكرر الإشارة
« وأولئك » تنبيهاً على عظم قدرهم وفضلهم (١) ، ولما ذكر تعالى حال السعداء ،
الذين اهتمدوا بكتاب الله وانتفعوا بسماعه ، عطف عليهم بذكر حال الأشقياء ،
الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع الغناء والمزامير
فقال (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) أى ومن الناس من يشتري ما يُلهى
عن طاعة الله ، ويُصد عن سبيله ، مما لا خير ولا فائدة فيه قال الزمخشري : واللهو
كل باطل أُلهى عن الخير ، نحو السمر بالأساطير ، والتحدث بالخرافات المضحكة ،
وفضول الكلام وما لا ينبغي (٢) ، وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضى
الله عنه أنه سئل عن الآية فقال : والله الذى لا إله إلا هو — يكررها ثلاثاً — إنما
هو الغناء (٣) ، وقال الحسن البصرى : نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير (٤)
(لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بَغِيرَ عِلْمٍ) أى لِيُضِلَّ الناس عن طريق الهدى ، ويُبعدهم
عن دينه القويم ، بغير حجة ولا برهان (ويتخذها هُزُوءاً) أى ويتخذ آيات الكتاب
المجيد سخرية واستهزاءً ، وهذا أدخل في القُبْح وأعرق في الضلال (أولئك لهم
عذابٌ مهين) أى لهم عذاب شديد مع الذلة والهوان (وإذا تُتلى عليه آياتنا)
أى وإذا قرئت عليه آيات القرآن (ولتى مستكبراً كأن لم يسمعه) أى أعرض
وأدبر متكبراً عنها كأنه لم يسمعها ، شأن المتكبر الذى لا يلتفت إلى الكلام ، ويجعل
نفسه كأنها غافلة (كأنَّ في أذنيه وقراً) أى كأن في أذنيه ثقلاً وصمماً يمنعانه عن
استماع آيات الله (فبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) أى انذره يا محمد بعذاب مؤلم ، مفرط
في الشدة والإيلام ، ووضع البشارة مكان الإنذار تهكمٌ وسخرية قال في البحر :
تضمنت هذه الآية ذمَّ المشتري من وجوه : التولية عن الحكمة ، ثم الاستكبار
عن الحق ، ثم عدم الالتفات إلى سماع الآيات ، ثم الإيغال في الإعراض مشبهاً

١ - البحر ٧-١٨٣

٢ - الكشف

٣ - الطبرى ٢١-٣٩

٤ - ابن كثير ٣ - ٦٣ المختصر وانظر اسباب النزول فى بدء السورة الكريمة

حال من لم يسمعها ، لكونه لا يلقي لها بالاً ولا يلتفت إليها ، ثم التهكم به بالبشارة بأشد العذاب (١) . . ولما ذكر ما وعد به الكفار من العذاب الأليم ، ذكر ما وعد به المؤمنين من جنات النعيم فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وبين حسن النية وإخلاص العمل (لهم جنات النعيم) أي لهم على إيمانهم واستقامتهم على شريعة الله جنات الخلد يتمتعون فيها بأنواع الملاذ ، من المآكل والمشارب والملابس ، والنساء الحور العين ، وسائر ما أكرمهم الله به من الفضل والإنعام ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر (خالدين فيها) أي دائمين في تلك الجنات ، لا يخرجون منها أبداً ، ولا يبغون عنها حولا (وعد الله حقاً) أي وعداً من الله قاطعاً ، كائناً لا محالة ، لا خلف فيه لأن الله لا يخلف الميعاد (وهو العزيز الحكيم) أي هو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء ليمنعه عن إنجاز وعده ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة . . ثم نبه تعالى الى دلائل قدرته ، وآثار عظمته وجلاله لإقامة البراهين على وحدانيته فقال (خلق السموات بغير عَمَدٍ ترونها) أي خلق السموات في سعتها وعظمتها وإحكامها بدون دعائم ترتكز عليها ، حال كونكم تشاهدونها كذلك واقفة من غير أن تستند على شيء ، ولا تمسكها إلا قدرة الله العليّ الكبير (وألقى في الأرض رواسي أنْ تَمِيدَ بكم) أي جعل فيها جبلاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب بكم فتهاكم بأن تقلبكم عن ظهرها ، أو تهدم بيوتكم بتزلزلها

قال الإمام الفخر : واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها ، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ، ولو خلقها تعالى مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة ، كما نرى الأراضي الرملية ينتقل الرمل الذي فيها من موضع الى موضع ، فهذه هي حكمة إرسائها بالجبال (٢) ، فسبحان الكبير المتعال (وبث فيها من كل دابة) أي ونشر وفرق في أرجاء الأرض من كل أنواع الحيوانات والدواب من مأكول ومركوب مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها (وأنزلنا من السماء ماءً) أي

١ - البحر المحيط ٧-١٨٤

٢ - التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥ - ١٤٣

وأَنْزَلْنَا لِحَفَظِكُمْ وَحَفَظَ دُوبِكُمْ الْمَطَرُ مِنَ السَّحَابِ (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)
 أَيَّ فَأَنْبَتْنَا فِي الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ النَّبَاتِ ، وَمِنْ كُلِّ صَنَفٍ مِنَ الْأَغْذِيَةِ وَالْأَدْوِيَةِ
 « كَرِيمٍ » أَيَّ كَثِيرِ الْمَنَافِعِ ، بِدِيعِ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ (١) (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي) أَيَّ هَذَا
 الَّذِي تَشَاهِدُونَهُ وَتَعَايِنُونَهُ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ هُوَ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ ، فَانْظُرُوا فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ ، وَالْإِنْسَانِ ، وَالنَّبَاتِ ، وَالْحَيَوَانِ ، وَسَائِرِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ثُمَّ تَفَكَّرُوا فِي
 آثَارِ قُدْرَتِهِ ، وَبِدِيعِ صُنْعَتِهِ ، ثُمَّ أَخْبِرُونِي (مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) ؟ أَيَّ أَيْ
 شَيْءٍ خَلَقْتَهُ آفَتَكُمْ الَّتِي عَبْدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ ؟ وَهُوَ سَوَالٌ
 عَلَى جِهَةِ التَّهْكُمِ وَالسَّخَرَةِ بِهِمْ وَبِأَلْهَتِهِمُ الْمَزْعُومَةِ ، ثُمَّ أَضْرَبَ عَنْ تَبْكِيَّتِهِمْ إِلَى
 التَّسْجِيلِ عَلَيْهِمُ بِالضَّلَالِ الْوَاضِحِ فَقَالَ (بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أَيَّ بَلِ
 الْمُشْرِكُونَ فِي خَسْرَانٍ ظَاهِرٍ ، وَضَلَالٍ وَاضِحٍ مَا بَعْدَهُ ضَلَالٌ ، لِأَنَّهُمْ وَضَعُوا
 الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، وَعَبَدُوا مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ ، فَهُمْ
 أَضَلُّ مِنَ الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ ، لِأَنَّهُ مِنْ عَبْدٍ صَنَمًا جَامِدًا ، وَتَرَكَ خَالِقًا عَظِيمًا مُدَبِّرًا
 يَكُونُ أَحْطَى شَأْنًا مِنَ الْحَيَوَانِ .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - وضع المصدر للمبالغة (هدى ورحمة للمحسنين) .
- ٢ - الإشارة بالبعيد « تلك آيات » عن القريب « هذه » لبيان علو الرتبة ورفعة
 القدر والشأن .
- ٣ - الإطناب بتكرار الضمير واسم الإشارة (وهم بالآخرة هم يوقنون . أولئك
 على هدى من ربهم وأولئك) لزيادة الثناء عليهم والتكريم لهم ، كما أن الجملة
 تفيد الحصر أي هم المفلحون لا غيرهم .
- ٤ - الاستعارة التصريحية (ومن الناس من يشترى لهُ الحديث) شبه حالهم بحال

١ - يقول سيد قطب تغمد الله برحمته في تفسيره الظلال : « والنص القرآني يقرر أن الله أنبت النبات
 أزواجاً » من كل زوج كريم « وهي حقيقة ضخمة اهتدى إليها العلم قريباً جداً ، فكل نبات له خلايا
 تكثير ، وخلايا تأنيث ، أما مجتمعة في زهرة واحدة ، أو في زهرتين في العود الواحد ، وأما منفصلة في
 عودين أو شجرتين ولا توجد الثمرة إلا بعد عملية التقاء وتلقيح بين زوج النبات كما هو الشأن في
 الإنسان والحيوان على السواء »

من يشتري سلعة وهو خاسر فيها ، واستعار لفظ يشتري لمعنى يستبدل
بطريق الاستعارة التصريحية .

٥ - التشبيه المرسل المجمل (كأن في أذنيه وقرأ) ذكرت أداة التشبيه وحذف
وجه الشبه فهو تشبيه « مرسل مجمل » .

٦ - أسلوب التهكم (فبشره بعذاب أليم) لأن البشارة إنما تكون في الخير ، واستعمالها
في الشر سخريه وتهكم .

٧ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم (وأنزلنا من السماء) بعد قوله (خالق وبث)
وكلها بضمير الغائب ، ثم التفت فقال « وأنزلنا » تعظيماً لشأن الرحمن ،
وتوفية لمقام الامتنان ، وهذا من المحسنات البديعة .

٨ - إطلاق المصدر على اسم المفعول مبالغة (هذا خالق الله) أى مخلوقه .

٩ - الاستفهام للتوبيخ والتبكيت (ماذا خالق الذين من دونه) ؟

١٠ - وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التوبيخ ، ولاتسجيل عليهم بغاية الظلم
والجهل (بل الظالمون في ضلال مبين) وكان الأصل أن يقال : بل هم في
ضلال مبين .

١١ - مراعاة الفواصل في الحرف الأخير مثل (عذاب أليم ، جنات النعيم ، زوج
كريم ، الكتاب الحكيم) ويسمى هذا النوع في علم البديع « سجعاً » وأفضاله
ما تساوت فقره ، وكان سليماً من التكلف ، خالياً من التكرار ، وهو كثير
في القرآن الكريم في نهاية الآيات الكريمة .

١ - قال الفخر الرازى : وفى هذا الالتفات فصاحة وحكمة ، أما الفصاحة فهى أن السامع اذا سمع كلاماً
طويلاً من نمط واحد ، ثم ورد عليه نمط اخر يستطيعه ، ألا ترى انك اذا قلت : قال زيد كذا ، وقال خالد
كذا ، وقال عمرو كذا ، ثم أن بكراً قال قولاً حسناً .. يستطاب لما قد كرر القول مراراً ، وأما الحكمة فهو أن
انزال الماء نعمة ظاهرة متكررة فى كل زمان ومكان ، فاسند الانزال الى نفسه صريحاً ليتنبه الانسان لشكر
النعمة ، فيزيد له فى الرحمة . التفسير الكبير ٢٥-١٤٤ .

فائدة : وصفُ الكتاب بالحكمة في هذه السورة « الكتاب الحكيم » مناسبٌ لجو السورة الكريمة لأن موضوع الحكمة قد تكرر فيها « ولقد آتينا لقمان الحكمة » فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الكتاب المجيد ، على طريقة القرآن في التنسيق بين الألفاظ والمواضيع .

المناسبة : لما بينَ تعالى فساد اعتقاد المشركين ، بسبب عنادهم وإشراكهم من لا يخلق شيئاً بمن هو خالق كل شيء ، ذكر هنا وصايا « لقمان » الحكيم ، وهي وصايا ثمينة في غاية الحكمة والدعوة إلى طريق الرشاد ، وقد جاءت هذه الوصايا مبدوءةً بالتحذير من الشرك الذي هو أقبح الذنوب ، وأعظم الجرائم عند الله .

اللغة : (الحكمة) الإصابة في القول والعمل ، وأصلها وضعُ الشيء في موضعه قال في اللسان : أحكم الأمر ألقنه ويُقال للرجل إذا كان حكيماً : قد أحكمته التجارب ، والحكيم : المتقنُ للأمور (١) (يعظه) ينصحه ويذكره ، والعظةُ والموعظةُ : النصيح والإرشاد (وهناً) الوهنُ : الضعف ومنه « وَهَنَ الْعَظَمُ مِنِي » أي ضعف (فصاله) الفِصال : الفِطام وهو لفظ يستعمل في الرضاع خاصة ، وأما الفصل فهو أعم ، وفَصَّات المرأة ولدها أي فطمته وتركت إرضاعه (أناب) رجع ، والمنيبُ الراجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار (تُصَعَّرُ) الصَّعَرُ : بفتحتين في الأصل داءٌ يصيب البعير فيلوي منه عنقه ثم استعمل في ميل العنق كبيراً وافتخاراً قال عمرو التغلبي :

و كنا إذا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أقمنا له من مَيْلِهِ فتَقَوَّم (٢)
(مَرَحاً) فرحاً وبطراً وخيلاء (مختال) متبختر في مشيته (اقْصِدْ) تَوَسَّطْ ،
والقَصْدُ : التوسط بين الإسراع والبطء (اغضض) غَضَّ الصوت خفضه
قال جرير :

١ - لسان العرب مادة حكم

٢ - القرطبي ١٤ - ٦٩

فَغَضَّ الطرفَ إِنْكَ مِنْ نُصْمِيرٍ فَلَا كَعْباً بَلَغْتَ وَلَا كِلَاباً (١)

التفسير : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) أي والله لقد أعطينا لقمان الحكمة وهي الإصاصة في القول ، والسداد في الرأي ، والنطق بما يوافق الحق ،
قال مجاهد : الحكمة : الفقه والعقل ، والإصاصة في القول ، ولم يكن نبياً وإنما كان حكيماً (٢) (أنْ اشْكُرْ لِلَّهِ) أي وقلنا له : اشكر الله على إنعامه وإفضاله عليك حيث خصّك بالحكمة وجعلها على لسانك **قال القرطبي :** والصحيح الذي عليه الجمهور أن « لقمان » كان حكيماً ولم يكن نبياً وفي الحديث « لم يكن لقمان نبياً ، ولكن كان عبداً كثير التفكير ، حسن اليقين ، أحب الله تعالى فأحبّه ، فمنّ عليه بالحكمة » (٣) (ومن يشكرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ) أي ومن يشكر ربه فثواب شكره راجع لنفسه ، وفائدته إنما تعود عليه ، لأن الله تعالى لا ينفعه شكر من شكر ، ولا يضره كفر من كفر ولهذا قال بعده (ومن كفر فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) أي ومن جحد نعمة الله فإنما أساء إلى نفسه ، لأن الله مستغن عن العباد ، محمود على كل حال ، مستحق للحمد لذاته وصفاته **قال الرازي :** المعنى أن الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرّر بكفر الكافر ، فهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أم لم يشكروه (٤) ثم ذكر تعالى بعض نصائح لقمان لابنه وبدأ بالتحذير له من الشرك ، الذي هو نهاية القبح والشناعة فقال : (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ) أي واذكر لقومك موعظة لقمان الحكيم لولده ، حين قال له واعظاً ناصحاً مرشداً : يَا بُنَيَّ كُنْ عَاقِلاً وَلَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ أَحَدًا ، بشراً أو صنماً أو ولداً (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) أي إن الشرك قبيح ، وظلم صارخ لأنه وضعٌ للشيء في غير موضعه ، فمن سوى بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله والضم فهو — بلا شك — أحقُّ الناس ، وأبعدُهم عن منطق العقل والحكمة ، وحري به أن يوصف بالظلم ويجعل في عداد البهائم (ووصينا الإنسان بوالديه) أي أمرناه بالإحسان إليهما لا سيما الوالدة (حملته

١ - ديوان جرير ص ٦٣ دار صادر ١٣٧٩ هـ الموافق ١٩٦٠ م

٢ - الطبري ٢١ - ٤٣

٣ - القرطبي ١٤ - ٥٩

٤ - التفسير الكبير ٢٥ - ١٤٥

أمه وهنا على وهن) أي حملته جنيئاً في بطنها وهى تزدد كل يوم ضعفاً على ضعف ، من حين الحمل إلى حين الولادة ، لأن الحمل كلما ازداد وعظم ، إزدادت به ثقلاً وضعفاً (وفصاله في عامين) أي وفطامه في تمام عامين (أن اشكر لي ولوالديك) أي وقلنا له : اشكر ربك على نعمة الإيمان والإحسان ، واشكر والديك على نعمة التربية (إليّ المصير) أي إليّ المرجع والمآب فأجازي المحسن على إحسانه ، والمسيئ على إساءته قال ابن جزى : وقوله « أن أشكر » تفسيرٌ للوصية ، واعترض بينهما وبين تفسيرها بقوله « حملته أمه وهناً على وهنٍ وفصاله في عامين » ليبين ما تكابده الأم بالولد مما يوجب عظيم حقها ، ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب (١) (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما) أي وإن بذلا جهدهما ، وأقصى ما في وسعهما ، ليحمالا على الكفر والإشراك بالله فلا تطعهما ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (وصاحبهما في الدنيا معروفاً) أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف والإحسان إليهما - ولو كانا مشركين - لأن كفرهما بالله لا يستدعى ضياع المتاعب التي تحملها في تربية الولد ، ولا التنكر للجميل (واتبع سبيل من أنابَ إليّ) أي واسلك طريق من رجع إلى الله بالتوحيد والطاعة والعمل الصالح (ثمَّ إليّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أي مرجع الخلق إلى الله فيجازيهم على أعمالهم ، والحكمةُ من ذكر الوصية بالوالدين - ضمن وصايا لقمان - تأكيد ما أفادته الآية الأولى من تقييح أمر الشرك « إن الشرك لظلم عظيم » فكأنه تعالى يقول : مع أننا وصينا الإنسان بوأديه ، وأمرناه بالإحسان إليهما والعطف عليهما ، وألزمناه طاعتهما بسبب حقهما العظيم عليه ، مع كل هذا فقد نهيناه عن طاعتهما في حالة الشرك والعصيان ، لأن الإشراك بالله من أعظم الذنوب ، وهو في نهاية القبح والشناعة . ثم رجع الكلام إلى وصايا لقمان فقال تعالى (يا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ) أي يا ولدي إن الخطيئة والمعصية مهما كانت صغيرة حتى ولو كانت وزن حبة الخردل في الصغر (فتكنْ في صخرةٍ أو في السمواتِ أو في الأرضِ يأتِ بها اللهُ) أي فتكن تلك

السيئة - مع كونها في أقصى غايات الصغر - في أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة الصماء ، أو في أعلى مكان في السماء أو في الأرض يحضرها الله سبحانه ويحاسب عليها ، والغرضُ التمثيل بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد (إنَّ الله لطيف خبير) أي هو سبحانه لطيف بالعباد لطيف في القدرة على استخراجها خبير بموضعها هي وسواها . (يا يُنِّي أَقم الصلاة) أي حافظ على الصلاة في أوقاتها وبخشوعها وآدابها (وأمرُ بالمعروف وانهَ عن المنكر) أي وأمر الناس بكل خير وفضيلة ، وانهم عن كل شر ورذيلة (واصبرْ على ما أصابك) أي اصبر على المحن والبلايا ، لأنَّ الداعي الحق معرَّض لإيصال الأذى إليه قال أبوحيان : لما نهاه عن الشرك ، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى ، وبأمر قدرته ، أمره بما يتوصل به إلى الله من الطاعات ، فبدأ بأشرفها وهي الصلاة ، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن بسبب الأمر بالمعروف ، فكثيراً ما يؤذى فاعلُ ذلك (١) (إن ذلكَ من عزم الأمور) أي إن ذلك المذكور مما عزمه الله وأمر به قال ابن عباس : من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكروه وقال الرازي : معناه إن ذلك من الأمور الواجبة المعزومة أي المقطوعة ، فالصدر بمعنى المفعول (٢) (ولا تُصَعِّرْ خدكَ للناس) أي لا تمل وجهك عنهم تكبراً عليهم قال القرطبي : أي لا تمل خدك للناس كبراً عليهم وإعجاباً ، وتحقيراً لهم ، وهو قول ابن عباس (٣) (ولا تَمْشِ في الأرضِ مَرَحاً) أي لا تمش متبختراً متكبراً (إن الله لا يحب كل مختال فخور) تعليلٌ للنهي أي لأن الله يكره المتكبر الذي يرى العظمة لنفسه ، ويتكبر على عباد الله ، المتبخر في مشيته ، والفخور الذي يفتخر على غيره ، ثم لما نهاه عن الخُلُقِ الذميمة ، أمره بالخُلُقِ الكريم فقال (واقصدْ في مشيك) أي توسَّط في مشيتك واعتدل فيها بين الإسراع والابطاء (واغضْضْ من صوتك) أي اخفض من صوتك فلا ترفعه عالياً فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل (إنَّ أنكر الأصوات لصوتُ الحمير) أي إن أوحش الأصوات صوتُ الحمير فمن رفع صوته كان

١ - البحر المحيط ١٨٨-٧

٢ - التفسير الكبير ٢٥-١٤٩

٣ - القرطبي ١٤-٧٠

مماثلاً لهم ، وأتى بالمنكر القبيح قال الحسن : كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم به الحمير ، وقال قتادة : أقبح الأصوات صوت الحمير ، أوله زفير وآخره شهيق .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :
١ - الطباق بين (شكر . . وكفر)

٢ - صيغة المبالغة (غنى حميد) وكذلك (لطيف خبير) و (فخور) لأن فعيل وفعول من صيغ المبالغة ومعناه كثير الحمد وكثير الفخر .

٣ - ذكر الخاص بعد العام (بوالديه حملته أمه) وذلك لزيادة العناية والاهتمام بالخاص .

٤ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر مثل (إليّ المصير) (إليّ مرجعكم) أي لا إلى غيري .

٥ - التمثيل (إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة) مثّل ذلك لسعة علم الله وإحاطته بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيقها ، فإنه تعالى يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة .

٦ - التميم (فتكن في صخرة) تم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها وهذا من البديع .

٧ - المقابلة (وأمر بالمعروف) ثم قال (وانه عن المنكر) فقابل بين اللفظين .

٨ - الاستعارة التمثيلية (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) شبه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وأصواتهم بالنهيق ، ولم يذكر أداة التشبيه بل أخرجه مخرج الاستعارة للمبالغة في الذم ، والتنفير عن رفع الصوت .

تنبيه : حين أمر تعالى بشكر الوالدين قدّم شكره تعالى على شكرهما فقال (أن اشكر لي) ثم أردفه بقوله (ولوالديك) وذلك لإشعارنا بأن حق الله أعظم من حق الوالدين ، لأنه سبحانه هو السبب الحقيقي في خلق الإنسان ، والوالدان سبب في الصورة والظاهر ، ولهذا حرّم تعالى طاعتهما على الإنسان إذا أراد إجماره على الكفر .

قال تعالى : (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاسْتَغْنَى

عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطنة ، ومن الناس من يجادل في الله بغير علمٍ ولا هدى ولا كتابٍ منير . . إلى قوله تعالى : إن الله عنده علمُ الساعةُ وينزل الغيثُ ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت ، إن الله عليمٌ خبير) . . من آية ٢٠ إلى ٣٤ نهاية السورة الكريمة .



المناسبة : لما حذّر تعالى من الشرك ، وأكده بوصايا لقمان الحكيم في الإيمان ومكارم الأخلاق ، ذكر هنا الأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة على وحدانيته تعالى ، ونبّه بالصنعة على الصانع ، وما له من نعمٍ لا تُحصى من تسخير السموات بما فيها من الشمس والقمر ، والنجوم ، والسحاب ، وتسخير الأرض وما فيها من الحيوان ، والنبات ، والمعادن ، والبحار ، وغير ذلك من الأدلة الشاهدة بوحدانيته ، وختم السورة الكريمة ببيان « المغيبات الخمس » .

اللغة : (أسبغ) أتم وأكمل يقال : سبغت النعمة سبوغاً إذا تمت (استمسك) تمسك وتعلق واعتصم (نفذت) فנית وفرغت (يولج) يَدْخُل والإبلاجُ : الإدخال ومنه « حتى يلج الجمل في سمّ الحياط » الأعراف ٤٠ . (الفلّك) السفن (كالظلل) الظُّلّ : جمع ظِلَّة وهي كل ما أظلّك من جبل أو سحاب (ختار) الختّار : الغدّار ، والختَرُ : أسوء الغدر قال الشاعر :

فإنك لو رأيتَ أبا عميرٍ ملأتَ يديك من غدرٍ وختَرٍ (١)

(الغُرور) ما يغرُّ ويخدع من شيطانٍ وغيره ، وغرّه الأمل : خدعه .

التفسير (ألم تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) أي ألم تعلموا أيها الناس أن الله العظيم الجليل سخر لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم لتنتفعوا بها ، وسخّر لكم ما في الأرض من جبال وأشجار وثمار وأنهار وغير ذلك مما لا يُحصى (وأسبغ عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطنة) أي وأتمّ عليكم أيها الناس نِعَمَه العديدة ، الظاهرة المرئية كنعمة السمع والبصر والصحة والإسلام ، والباطنة الخفية كالقلب والعقل والفهم والمعرفة وما أشبه ذلك قال البيضاوي : أي أسبغ

عليكم نعمه المحسوسة والمعقولة، ما تعرفونه وما لا تعرفونه (١) (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) أي ومن الناس فريق جاحدون يخاصمون ويجادلون في توحيد الله وصفاته بغير علم ولا فهم، ولا حجة ولا برهان، ولا كتاب منزل من عند الله قال القرطبي: نزلت في يهودي جاء إلى النبي (ص) فقال يا محمد: أخبرني عن ربك من أي شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته (٢)، والمنير: الواضح البين المنقذ من ظلمة الجهل والضلال (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) أي وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، وصدّقوا به فإنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال (قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) أي قالوا نسير على طريقة آبائنا ونقتدي بهم في عبادة الأوثان والأصنام (أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير). الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي يتبعونهم ولو كانوا ضالين، حتى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى النار المستعرة ذات العذاب الشديد؟ (ومن يسلم وجهه إلى الله) أي ومن يقبل على طاعة الله وينتقد لأوامره، ويخلص قصده وعبادته لله (وهو محسن) أي وهو مؤمن موحد قال القرطبي: لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع (٣) ونظير الآية «ومن يعمل من الصالحات وهو يؤمن» فلا بد من الإيمان والإحسان (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أي تمسك بحبل لا انقطاع له، وتعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب قال صاحب الكشاف: هذا من باب التمثيل، مُثِّلَتْ حال المتوكل بحال من تدلى من شاطئ فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة، من حبل متين مأمون انقطاعه (٤) وقال الرازي: أوثق العرى جانب الله، لأن كل ما عداه هالك منقطع، وهو باق لا انقطاع له (٥) (وإلى الله عاقبة الأمور) أي إلى الله وحده — لا إلى أحد سواه — مرجع ومصير الأمور كلها فيجازي العامل

١ - البيضاوى ١٠٩-٢

٢ - القرطبي ١٤ - ٧٤ وقيل: نزلت في (النضرب الحارث) و (أبي بن خلف) واشباههما الذين كانوا يجادلون النبي (ص) في وحدانيته تعالى وصفاته، من غير علم عقلي ولا دليل شرعي

٣ - القرطبي ١٤-٧٤ ٤ - الكشاف ٣-٣٩٥

٥ - التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥ - ١٥٤

عليها أحسن الجزاء (ومن كفر فلا يحزنك كفره) تسلياً للرسول (ص) أي لا يهمنك يا محمد كفر من كفر ، ولا ضلال من ضل ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإننا سننتقم منهم إن عاجلاً أو آجلاً (إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) أي إلينا رجوعهم ، فنخبرهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا (إن الله عليمٌ بذات الصدور) أي عليم بما في قلوبهم من المكر والكفر والتكذيب فيجازيهم عليها (نمتعهم قليلاً) أي نبقئهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها (ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) أي ثم نلجئهم في الآخرة إلى عذاب شديد هو عذاب النار ، الفطيع الشاق على النفس ، ثم لما بين تعالى استحماقهم للعذاب ، بين تناقضهم في الدنيا وهو اعترافهم بأن الله خالق السموات والأرض ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها ملك له وأنها مخلوقاته فقال (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله) أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من كفار مكة من خلق السموات والأرض ؟ ليقولنَّ لغاية وضوح الأمر - الله خلقهنَّ هم معترفون بوجوده ويضطرون للجوء إليه (قل الحمد لله) أي قل لهم الحمد لله على ظهور الحجة عليكم ، وعلى أن دلائل الإيمان ظاهرة للعيان (بل أكثرهم لا يعلمون) أي بل أكثر هؤلاء المشركين لا يفكرون ولا يتدبرون فلذلك لا يعلمون ، ثم قال تعالى (لله ما في السموات والأرض) أي له جلّ وعلا ما في الكائنات ملكاً وخالقاً وتدبيراً (إن الله هو الغني الحميد) أي المستغنى عن خلقه وعن عبادتهم ، المحمود في صنعه وآلائه (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) أي ولو أن جميع أشجار الأرض جُعلت أقلاماً (والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر) أي وجعل البحر بسعته حبراً ومِداداً وأمدّه سبعة أبحر معه فكتبت بها كلماتُ الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله (ما نفدت كلماتُ الله) أي لانتهت وفنيت تلك الأقلام والبحار وما انتهت كلماتُ الله ، لأن الأشجار والبحار متناهية وكلماتُ الله غير متناهية قال القرطبي : لما ذكر تعالى أنه سخر لهم ما في السموات وما في الأرض ، وأنه أسبغ النعم ، نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً ، والبحار لو كانت مداداً ، فكتب بها عجائب صنع الله ، الدالة على قدرته ووحدانيته

لم تنفذ تلك العجائب (١) وقال ابن الجوزي : وفي الكلام محذوف تقديره : فكتب بهذه الأقلام وهذه البحور كلماتُ الله ، لتكسرت الأقلام ونفذت البحور ولم تنفذ كلماتُ الله أي لم تنقطع (٢) (إن الله عزيز حكيم) أي غالب لا يعجزه شيء ، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته أمر (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أي ما خلقكم أيها الناس ابتداءً ، ولا بعثكم بعد الموت انتهاءً إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ، لأنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ، قال الصاوي : المعنى أن الله لا يصعب عليه شيء ، بل خلق العالم وبعثه برُمتيه كخلق نفس واحدة وبعثها (٣) (إن الله سميع بصير) أي سميع لأقوال العباد ، بصير بأعمالهم ، ثم أشار تعالى إلى دلائل قدرته في الآفاق فقال (ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل) أي ألم تعلم أيها المخاطب علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية ، أن الله العظيم الجليل يدخل ظلمة الليل على ضوء النهار ، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل ، ويزيد في هذا ويُنقص من هذا حسب الحكمة الأزلية (وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجري إلى أجل مسمى) أي ذللتهما بالطلوع والأفول تقديرًا للأجال ، وإتماماً للمنافع ، كلٌّ منهما يسير في فلكه إلى غاية محدودة هي يوم القيامة (وأن الله بما تعملون خبير) أي وأنه تعالى عالم بأحوالكم وأعمالكم لا تخفى عليه خافية ، فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق ، والتدبير الفائق ، لا يكاد يغفل عن كون صانعه جل وعلا محيطاً بكل أعماله (ذلك بأن الله هو الحق) أي ذلك الذي شاهدتموه من عجائب الصنع وباهر القدرة ، لتأكدوا أن الله هو الإله الحق الذي يجب أن يُعبد وحده (وأن ما يدعون من دونه الباطل) أي وأن كل ما يعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام باطل لا حقيقة له كما قال لبيد «ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل» فالجميع خلقه وعبيده ، ولا يملك أحدٌ منهم تحريك ذرةٍ إلا بإذنه (وأن الله هو العلي الكبير) أي وأنه تعالى هو العليُّ في صفاته ، الكبير في ذاته (ألم تر أن الفُلُك تجري في البحر بنعمة الله) تذكيرٌ بنعمة أخرى

١ - القرطبي ١٤-٧٦

٢ - زاد المسير ٦-٢٢٦

٣ - حاشية الصاوي على الجلالين ٣-٢٥٩

أي ألم تر أيها العاقل أن السفن العظيمة تسير في البحر بقدره الله ، وبتسخيره ولطفه بالناس ، وإحسانه إليهم ، لتهيئة أسباب الحياة قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجرى فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن ما جرت (١) ولهذا قال بعده (ليريكمن من آياته) أي ليريكمن عجائب صنعه ، ودلائل قدرته ووحدانيته (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أي إن في تسخير هذه السفن وما تحمله من الطعام والأرزاق والتجارات لآيات باهرة وعبراً جلية لكل عبد منيب ، صبار في الضراء ، شكور في الرخاء ، ولفظة « صبار » و « شكور » مبالغة في الصبر والشكر (وإذا غشيهم موجٌ كالظلل) أي وإذا علا المشركين وغطاهم وهم في البحر موجٌ كثيف كالجبال (دعوا الله مخلصين له الدين) أي أخلصوا دعاءهم لله حين علموا أنه لا منجي لهم غيره ، فلا يدعون لخلاصهم (فلما نجاهم إلى البر) أي فلما أنقذهم من شدائد البحر ، وأخرجهم إلى شاطئ النجاة في البر (فمنهم مقتصد) في الآية حذف تقديره فمنهم مقتصد ، ومنهم جاحد ، ودل عليه قوله « وما يحسد بآياتنا » والمقتصد : المتوسط في العمل الصالح قال ابن كثير : وهذا من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال ، والأمور العظام ، ورأى الآيات الباهرة في البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والمبادرة إلى الخيرات ، والدؤوب في العبادات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً (٢) (وما يحسد بآياتنا إلا كل ختار كفور) أي وما يكذب بآياتنا إلا كل غدار ، مبالغ في كفران نعم الله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم) أي اتقوا ربكم بامثال أوامره ، واجتناب نواهيه (واخشوا يوماً لا يَجْزِي والدٌ عن والدِه) أي وخافوا يوماً رهيباً عصبياً لا ينفع والد فيه ولده ، ولا يدفع عنه مضرة ، أو يقضى عنه شيئاً مما تحمله (ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً) أي ولا ولدٌ يغني أو يدفع عن والده شيئاً ، أو يقضي عنه شيئاً من جنائته ومظالمه قال الطبري : المعنى لا يغني والد عن ولده ، ولا مولود هو مغني عن والده شيئاً ، لأن الأمر يصير هناك بيد من لا يغالب

١ - مختصر ابن كثير ٣-٦٩

٢ - مختصر ابن كثير ٣ - ٧٠

ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل ، إلا وسيلة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا (١) (إنَّ وعدَ الله حقٌّ) أي وعده بالثواب والعقاب ، والبعث والجزاء حقٌّ لا يتخلف (فلا تغرنكم الحياةُ الدنيا) أي لا تخدعنكم الحياة الدنيا بمفاتها ولذاتها فتركنوا إليها (ولا يغرنكم بالله الغرور) أي ولا يخدعنكم الشيطان الماكر الذي يغر الخلق ويمنيهم بأباطيله ويلهيهم عن الآخرة (إن الله عنده علمُ الساعة) هذه هي مفاتيح الغيب التي اختص الله بعلمها وهي خمس كما جاء في الحديث الصحيح « مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله وتلا الآية (٢) » أي عنده تعالى معرفة وقت قيام الساعة التي تقوم فيها القيامة (ويُنزِلُ الغيثَ) أي وعنده معرفة وقت نزول المطر ومحل نزوله (ويعلم ما في الأرحام) أي من ذكرٍ أو أنثى ، شقي أو سعيد (وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً) أي يدري ما أحد ماذا يحدث له في غد ، وماذا يفعل من خير أو شر (وما تدري نفس بأي أرض تموت) أي كما لا يدري أحدٌ أين يموت ، ولا في أي مكان يُقبر (إن الله عليمٌ خبير) أي مبالغ في العلم ، يعلم كل الأمور ، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين قوله (ظاهرةً . . وباطنة) وكذلك بين لفظ (الحق . . والباطل) .
- ٢ - الإنكار والتوبيخ مع الحذف (أولو كان الشيطان يدعوهم) أي أيتبعونهم ولو كان الشيطان .

- ٣ - المجاز المرسل (ومن يُسلم وجهه) أطلق الجزء وأراد الكل ففيه مجاز مرسل .

- ٤ - التشبيه التمثيلي (فقد استمسك بالعروة الوثقى) شبه من تمسك بالإسلام بمن أراد أن يرقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق جبل ، وحذف أداة التشبيه للمبالغة .

- ٥ - المقابلة بين (ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن) وبين (ومن كفر فلا يحزنك كفره) . . الآية .

١ - الطبري ٢١ - ٥٥

٢ - أخرجه البخاري

٦- الاستعارة (عذابٌ غليظ) استعار الغلظ للشدة لأنه إنما يكون للأجرام فاستعير للمعنى .

٧- تقديم ما حققه التأخير لإفادة الحصر (وإلى الله عاقبة الأمور) أي إليه لا إلى أحدٍ غيره .

٨- صيغ المبالغة في التالي (صَبَّارٌ شَكُورٌ) و (خَتَّارٌ كَفُورٌ) و (عَلِيمٌ خَبِيرٌ) و (سَمِيعٌ بَصِيرٌ) كما أنَّ فيها توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع .

« تم تفسير سورة لقمان والله الحمد والمنة »

محمد علي الصابوني